فضيحة مدبرة

قصة قصيرة بقلم يوسف شامل

بدأت القصة بداية عادية ، ولكنها انتهت نهاية غير عادية . ومرد ذلك في الحقيقة الى عامل الصدفة العمياء . والا ، فمن أين لتلك العجوز السكينة ان تحلم باثارة كل تلك الضجة ، لولا مرور المدير العام للمؤسسة العليا للبنوك الوطنية ، ورؤيته لها على مقربة من باب ذلك الفرع المشؤوم ، الفرع رقم « ١٣ » من الزمرة « ب » . يثور القارىء الآن فيما أظن ، ويحتج على هذا الاسلوب البوليسي في العرض ، وربما قذف بالمجلة جانبا وهو ينعي انحطاط الانتاج الادبي ، ولن أكون في منجى من شتيمة او شتيمتين . سامحك الله !.. مهلك عزيزي القارىء ولا تنفعل . ولم الانفعال !؟ تريد ان تعرف من تكون تلك العجوز ؟ حسنا ، انها « أم أحمد » الشحاذة المحترفة . في الحقيقة ، بدأت العمل في تلك المصلحة من باب الهواية ، ولكنها احترفت في النهاية . والمدير ؟ المدير المجهول هذا من يكون ؟ ولكن ، وحتى لو عرفت ، فهل تريدني ان ابوح بالاسرار ، واذيع ما لا يذاع . خذ الامور بسهولة وبساطة اذن . فالفرع « ١٣ » هو الفرع « ١٣ » ، اما الزمرة « ب » فهي الزمرة « ب » ،وهي بالتاكيد غير الزمرة الدموية المعروفة .

تلك المعلومات غير كافية ، ثم انها غير اكيدة ايضا . ماذا تفضلت سيدي ؟.. « أم أحمد » ؟؟ تشرفنا !.. وربما كانت أم محمود . وما المانع ان تكون « أم لا أحد » ؟ وهذا « الرفعت » قد يكون طلعت ، او انه جرجس ، وربما ان اهله فاتهم ان يطلقوا عليه أي اسم ، فنشأ دون اسم ، السيد « x » ، و ... و ... و ... ، نحتاج اذن الى بعض الايضاحات الاضافية ، وخصوصا بالنسبة للشخصية الرئيسية : الشحاذة . لان المدير هو مدير ، كان وما يزال في جميع القصص والروايات . قلنا اذن « أم أحمد » ، ورغم ذلك فان احدا في الحقيقة لم ير أحمد ذاك ، ولا يعرف عنه شيئا ، وبالتالي لا تطلب مني الاستنارة حول هذا الموضوع . غير الاسم ، يمكنني ان اقول انها مشت في شيخوختها الى حافة القبر . جلد مفضن على عظم ناحل . اما تقاطيع وجهها فدقيقة ومدببة ، قد يستشف فيها بعض اصحاب الفراسة خبثا اكيدا ، وان كانت المسكينة قد فاتها الخبث ، وانقطع ما بينها ، وبين الحيلة ، ولم يعد في استطاعتها ممارسة تلك المزية ، ان كانت موجودة حقا . وماذا ايضا ؟ عزيزي القارىء ، اذا كنت تنتظر مني كل الشروح والتفاصيل ، فانت مخطىء . وانا انتظر مساهمتك الفعالة ، اذ ربما قد التقيت بتلك المخلوقة اكثر من مرة ، وربما بالتالي انك تعرف عنها اكثر مني . جرب اذن ان تشحذ ذاكرتك ، وساعدني على استحضار صورة تلك البائسة ، بدلا من الاضطجاع بهدوء في سريرك ، مستسلما للخمول والتنبلة ... آه ، نعم ، انت هناك ، أرأيت !.. بلى ، بلى ، يا عزيزي ، انها نحيلة ، صغيرة ، مقوسة الظهر قليلا . نعم ، وجلدها نحاسي ، وشعرها ابيض بالكامل ، نعم ... نعم ، هي ذاتها ، الفقيرة التي تفكر بها ، والتي كانت تجلس بالقرب من كنيسة الحارة الشرقية ، كل يوم احد . وانا أرى ، وربما كنت توافقني على ذلك ، انها تكاد تكون شخصية غير واقعية . وان عندها شيئا من المبالغة : في الفقر ، في الطيبة ، في التذلل والمسكنة ، في رثاثة الثياب ، في الوصفيات التراجيدية التي تتخذها اثناء سيرها وجلوسها ، فاذا ما رأيتها في بعض الاحايين ، وقد تكومت حول نفسها كتلة من العظام الدقيقة ، تلفها شملة سوداء متسخة ، وقد ألوت عنقها فوق تلك الكومة كما يلوي عنقه مالك الحزين على ضفاف الانهار الهادئة ، خيل اليك أنها ليست الا ممثلة ، وان رصيف الشارع خشبة مسرح حقيقية ، تمثل عليها تلك الفتاة البارعة دورها المرسوم بدقة وعناية . ولكنها ، يا حسرة على التمثيل ، كانت تعيش ذلك الدور حقيقة حية ، لا تمثيلية تدوم ساعة او ساعتين ، ثم تسقط في هوة العدم . ايه ! دنيا ... والدنيا عاهرة لا يسلم من اذاها احد . ماذا ؟ لم اسمع جيدا ؟.. تريد ايضاحات ثانية اكثر اهمية ؟ مثل ماذا ؟

ـ هل تعاني من ترسبات عقدة « اليكترا » ؟ ما هي الامراض العصابية التي تعاني منها ، وعلاقة تلك الامراض بالنشاط الجنسي ؟ هل هي ذات شخصية انطوائية او منطلقة ؟ هل تعاني من الشعور بالاضطهاد والاحساس بالذنب ؟ و ...

رويدك عزيزي القارىء ، بشرفي لا اعرف . ولو عرفت لما أخفيت عنك . ولكني في الحقيقة ، لا أرى لكل تلك الاسئلة أي محل في حديثنا هذا . ذاك رأيي ، فقل عنه ما تشاء .

نعود الى ما بدأناه ، وكنا في مقام أم احمد أمام البنك . أجل . فقد نقلت نشاطها منذ فترة بعيدة الى تلك المنطقة الموسرة من حي التل ، وقبعت في تلك النقطة الاستراتيجية . وكانت قد تنقلت في مناطق كثيرة من المدينة ، ووجدت أخيرا أن تلك البقعة افضل مستقر. فقد جنت هنا من الربح اضعاف ما جنته في أي مكان آخر . وكان الاغنياء على غير عادتهم ، يغدقون عليها الفرنكات جيئة وذهابا . ربما كما سبق وبينت لكم لانها كانت تبدو كممثلة اكثر منها شحاذة. وبالتالي كانت تستحق المكافأة على اجادتها التمثيل اجادة بارعة . وربما كان السبب ، تلك المسحة من الطيبة والمذلة القانعة الرضية ، تكسو وجهها السمح المجعد ، وكان في تلك المسحة المتذللة الخانعة الطيبة ما يدعو الى تخليص النفس من تبكيت الضمير الذي يساور الانسان عند رؤيته الشقاء والتعاسة . كان فيها ما ينادي الرائح والغادي :

ـ هيه ، انت هناك !.. هيه ، انت هنا !.. خلص روحك من الندم والشعور بالذنب ، أرض غرورك وكبريـاءك بممارسة الاحسان ، فضيلة الفضائل في كل الاديان والتعاليم الربانية ، أقم تلـك العلاقة الاخوية بين بني البشر ، علاقة الصدقة ، هلـم ... هلـم ، ولا تدع الفرصة تفوتك !

وكانت تلك الدعوة مؤثرة نفاذة ، فمن استجاب لها من العابرين ، بذل بسخاء ، وتلقى المكافأة الموعودة : دعـوات لا تنتهي بالتوفيـق والتيسير . وبمعنى آخر ، يكون قد حصل رضى الفقـراء وبركتهم ، واقام معهم علاقات المودة والاخاء .

وربما كان السبب غير هذا وذاك . فقد كان في هيئتها ما يقترب بها من هيئة العرافين ، ممن يقرأون الطالع ، ويعرفون الغيب . فهي في تقاطيعها اقرب الى السحرة والمشعوذين منها الى الفقراء العاديين ، فكان البعض يأنسون في التصدق عليها ، ويشعرون وكأنهم يسترضون الارواح الهائجة الثائرة ، المنبعثة من المقابر المجهولـة ، والقابعة خلف سجف الغيوم ، في الليالي المعتمة . وربما كان هناك اسباب اخـرى لا أعرفها . المهم في الامر أنها استقرت في مقامها الاثيـر ذاك ، دون ترخيص رسمي من الحكومة في الحقيقة ، ولكنهـا لم تكن لتعود بالاذى على احد ، فلم يتعرض لها مخلوق من بني الانس ، ولم يمسسها ملك من ملوك الجان ، طيلة فترة طويلة ، حتى كان مرور رفعت بك ، فأقام الدنيا واقعدها ، وكان ما كان . لماذا يا رفعت ؟ سامحك الله . ربما كنت على حق ، ولكن انظر الى أين انتهت النتائج .

والقضية لا تعدو كونها قضية اجتماع استثنائي عاجل ، مـن بين جملة الاجتماعات التي عقدت في مختلف ارجاء البلاد ، وقطع المدير العام للمؤسسة المذكورة رحلته الى اوروبا ، وجاء خصيصا للاشراف على تلك الاجتماعات . وتقرر ان يعقد الاجتماع في مدينتنا في مقر الفرع «١٣». ماذا اقول ؟ ساعة نحس ! ولكنها اتاحت لام أحمد ان تحضر طرفا مـن ذلك الاجتماع الاستثنائي : بدايته . فلقد توافدت السيارات الفخمـة منذ الساعة التاسعة . وكانت تلـك السيارات تقف امامها باجـلال وهيبة ، وتنفتح ابوابها عن رجال وافري الصحة علـى الاغلب ، حسني الهندام ، يحملون حقائب جلدية منتفخة بوقار . فهل قامت المسكينـة باي اساءة ؟ كلا والف كلا . واتحدى أي مخلوق ان يدعي انه ندت عنها أي حركة اهانة او اثارة ، او أي كلمة نابية . وكل جريمتها ، ان كان التحرش بالموسرين على تلك الصورة جريمة ، انها كانت تمسح بعينيها ، بحنان ، كل سيارة تقف امامها ، شبرا شبرا . ثم تتسلق نظراتها الرجل الوقور الهابط من السيارة ، وتتحسس بلطف نعومة ثيابه ورقة بشرته، وتجس بتؤدة واجلال الحقيبة المهيبة المعلقة في يده ، مغلقة على اسرار مجهولـة .

ودام الاجتماع فترة طويلة ، ثم انتهى اخيرا على مقررات ومقترحات كثيرة . وخرج كل مدير بنفس الوقار الذي دخل به الى البنك قبـل الاجتماع ، وطارت السيارات برشاقة ، وكل سيارة تحمـل بضاعتها الغالية . وبعد فترة من الزمن خرج المدير العـام بنفسه ، فتوفر لام احمد ان تشاهد تلك الشخصية دون ان تعلم بالطبع مـدى اهميتها وخطورتها . وعندما هم رفعت بك بالصعود الى السيارة التـي تقف بانتظاره ، وقع نظره فجاة عليها ... لبرهة ، تفحصها بنظرة محايدة ، وكاد ينقل نظره عنها ، لولا ان فكرة غريبة لمعت في قحف جمجمته ، كما يلمع بارق في فسحة السماء المعتمة . فتوقف وقـد عراه الاضطراب ، واخذ يتفحصها هذه المرة ، بتشكك واتهام و ... خوف . ولقد شعرت المسكينة تحت وطاة نظراته بحرج واضطراب شديدين ، واحست بانهـا حملت فجاة ، ووضعت في قفص الاتهام دفعة واحدة ، لجريمة لم تعرف بعد ما تكون ، واحست بان الاصابع المهددة المتهمة تشير اليها من كـل جانب ، فثار بها الخوف ، وتململت في جلستهـا باضطراب ، وازدادت تكوما وانطواء على نفسها حتى صارت كالقطة الصغيرة . وارتفعت يـد رفعت بك فجاة ، وانفـرد من تلك اليد اصبع السبابة مشيرا الـى ام أحمد ، وسأل السائق بسرعة وغضب :

ـ من هذه ... من هذه الشحاذة ؟ من تكون ؟ ولماذا تجلس هنا ؟

وجاء جواب السائق ببساطة :

ـ لا اعرف ، سيدي . لماذا ... هل حصل شيء ؟

ـ شيء ؟ لا ، معاذ الله . ألا تراني مسرورا امتـع النظر بتأمـل طلعتك البهية . امكث هنا ولا تتحرك ...

وعاد مسرعا وهو يقذف بسيل مـن اللعنـات والشتائم . وثارت داخل البنك زوبعة ، وعصفت . وابرقت السماء وارعدت ، واخذ المطـر يهطل بغزارة على رؤوس الموظفين الواحد تلو الآخر . وانصب فيض من الصواعق بشكل خاص على رأس المدير التعيس ، فقد فتح المدير العام معه محضر تحقيق كامل . من تكون تلك المرأة ؟ منذ متى تتربص امام باب البنك ؟ وكيف سمح لها بالمكوث في هذه المنطقة الحساسة ؟ هل رآهـا الصحفيون الاجانب الذين كانوا في زيارة لبعض البنوك منـذ فترة ؟ زخم من الاسئلة لا ينتهي . أين ؟ وكيف ؟.. ولماذا ؟.. كان رفعت بك يزأر ، وفد سيطر عليه الغضب والانفعال :

ـ ماذا ؟ مجرد شحاذة ؟.. وما ادراك ؟.. ومن اخبرك بأن العيون المبثوثة حولنا لا تراقبنا من محجري هذه الشحاذة المزعومة ؟ وافـرض انها شحاذة ، أليس في مقامها امام بنكنا ما يثير ضدنا الفضيحة ؟ مـن أين ... من أين فقط خرج لنا كل ذلك البؤس ، وهذا الشقاء ؟ لقـد انتهينا من البؤس ، او هذا ما نقوله على الاقل . لقـد حققنا نهضة ، وبنينا مجدا ، او هذا ما نقوله . وارسينا دعائم الاخاء والمحبة ، او هذا ما نقوله على الاقل ، فمن أي جحر معتم ، من أي وكـر ضبع ، خرجت لنا هذه التحفة الاثرية ؟ وكان يجب ان تطردها منذ اليوم الاول ، ولكنك لم تفعل ، وسيكون لعملك أسوأ النتائج . ستفضحنا ، هذا اذا لم تكن اسرارنا قد انكشفت ، وانتهينا .

ردد مدير الفرع بانكسار ، وقد فاجاته الخطورة التي لـم يحسن تقديرها :

ـ نعقد اجتماعا اذن .

ـ نعم ، بدون شك . ودون أي تأخير . عصر هذا اليوم بالذات . في الوقت المحدد ، تقاطر المدعوون الى الاجتماع ، وكلهم لهفـة وترقب . فقد انذروا جميعا بالحضور لدراسة امر طارىء ملح . وفـي قاعة الاجتماعات ، وفي زواياهـا الاربع وزعت اربـع مجامـر نحاسية جميلة الصنع ، متعة للنظر ، ومن كل مجمرة كان يتصاعد عبق البخـور وضبابه الرقيق الناعم . من كان صاحب الفكرة ، لم أدر بعد . ولكـن الارجح ان يكون ذلك العمل ارضاء لبعض الحاضرين . كان مـن بيـن المدعوين مطران تلك المنطقة ، وقاضي الشرع فيها . وقائد الشرطة وقائد الموقع . كلما حضر لفيف من رجال المال والثـروة ، وجهاء المدينـة وسادتها . وبالاضافة اليهم حضرات بعض السيدات ، مندوبات عـن جمعيات خيرية مختلفة . ولا تنس بالطبع مدراء البنـوك جميعا دون استثناء . ودارت الهمسات في القاعة ، وعقدت الحلقـات ، وذهبت التكهنات مذاهب شتى . وعلت الهمسات حتـى غدت ضجة خرساء مبهمة لها ازيز ، فكأنه وكر زنابيـر هائجة .على ان الصمت ران فجـاة فوق رؤوس الحاضرين جميعا عندما دخل المدير العام رفعت بك ، متجهم الوجه ، يفيض بالخطورة والجدية . وبعد اعلان افتتاح تلـك الجلسة الطارئة وقف فيهم خطيبا . ولكن قبل ان يتكلم ، وقف لفترة صامتا ، فعم الصمت والسكون ، وساد جو من التوقع والانتظار مثير ومشوق . واطال وقفته الصامتة ، فكادت الانفاس تنقطع ، وتغلغـل الاحسـاس بالجدية والخطورة والاحترام في نفوس جميع الحاضرين . واطـال صمته اكثر فاكثر ، فباتوا على مثل الجمر ، واصبحوا عـلى اشد الشـوق للاستماع . عندها ، بدا حديثه وهو يتنحنح :

سيداتي ... سادتي .

ربما بدا اجتماعنا الطارىء هذا غريبـا للبعض ، ولكنـي قدرت ضرورة عقده ، وفي اسرع وقت ، وبعد ان اشرح لكم الاسباب التـي

دعتنا لعقده ، يكون بامكانكم ان تحكموا ان كنت محقا أم لا . واريد بادىء ذي بدء ان اعتذر لانني لست بالخطيب البارع ، ولم أكن احسن في يوم من الايام صياغة الجمل الانشائية الجميلة ، ذلك جهد تركته لطلاب المدارس الذين يتلاعبون وهم في حداثة السن بالالفاظ والتعابير، بلذة ونشوة . اعذروني اذن ، ولندخل في الموضوع الذي اجتمعنا من أجله . ان امرأة مجهولة ، تدعي انها شحاذة ، تقبع أمام باب الفرع « ١٣ » منذ أمد طويل . وان مقامها في هذا المكان ، الذي افل ما يمكن ان يقال فيه ، انه غير صالح اطلاقا للتسول ، مقام مشبوه . وأيا كان ، فوجودها هنا فضيحة ... فضيحة مدبرة ضدنا جميعا ، سواء كانت جلستها تلك مقصودة او عفوية . اما بالنسبة لي ، فأرجح الاحتمال الاول ، لان جماعة الـ ORS كما تعلمون ، نشطت كثيرا في هذه الايام الاخيرة ، وارجح ان تكون من اعوان تلك الجماعة . هذا ، اذا لم تكن ، وهو ما لا ارجوه ، من عصابة الـ «SS 1963» ، وكلكم تعرفون فظائعها . انني ارجح ان تكون جلستها مقصودة أمام بنكنا للتجسس والتحايل ، لان فقرها من نوع غريب ... فقر تمثيلي اكثر مما هو طبيعي . لكأنها شخصية سينمائية ! ولكن ، سأدع لكم ان تحكموا بانفسكم ، بعد ان تشاهدوها .

وتابع المدير العام حديثه ، وكان صوته يرن ملء القاعة ، ليحذر الحاضرين :

... ولا تنسوا الصحفيين واساليبهم المشهورة في التشهير . غدا ينشرون صورنا على صفحات مجلاتهم ، وينشرون صورة تلك الشحاذة امام البنك ، ليدعوا بخساسة اننا ننهب ثروتنا من تلك المرأة . تصوروا هذا الادعاء السخيف : الفقراء لا يملكون شيئا ، ولكننا مع ذلك نسرقهم ، ونجني ثروتنا من فقرهم !! ومع ذلك تجدون عددا لا بأس به من الاغبياء والمخربين يصدقون ذلك الزعم ويتحمسون له . ولكن ، هذا حديث فات أوانه . ونحن لا نكن للفقراء الا المحبة والاحترام ، ولقد أنشأنا لهم الجمعيات الخيرية ، وقمنا بخدمتهم على اكثر من صورة . وانا شخصيا . كنت اعتقد اننا انتهينا منهم ، اقصد من الفقر ، نهائيا ...

ختاما ، اقترح اجراء تحقيق دقيق في الموضوع ، وبانتظار ذلك ، ارجو ان استمع الى آرائكم وتوجيهاتكم ... وشكرا . »

بعد انتهاء كلمة المدير العام التي حظيت بكل الاهتمام والتقدير ، واثارت الحماس والاندفاع والشعور بالخطر ، من بين ما اثارت من مشاعر وافكار ، دار اللغط عاليا بين جمهور الحاضرين .وبدأ كل يصرح برأي . وكان اول المتكلمين سماحة المطران ، فطلب العفو والمغفرة من الاب السماوي ، واستلهمه سداد الراي والرشد والعون ، وابعاد الخطر عن أبنائه المخلصين . ثم اوضح :

ـ ... في رأيي ان احدا ، غير الملحد ، لا يجرؤ على مس الاعمال الخيرية الكثيرة التي قدمها السادة الافاضل المجتمعون في هذه القاعة. وفي رأيي ان الاخوة والمحبة عواطف راسخة قوية ، قائمة بين بني الوطن، وكل من يحاول تمزيق تلك الرابطة السماوية القدسية ، انما يعمل بوحي من الهام شيطاني خبيث . واخيرا ، مهما تكن حقيقة تلك المرأة ، فالاب السماوي المقدس سيرعى ابناءه ، ولن يتركهم فريسة لاي جماعة، او لاي عصابة ، مهما بلغت من الشر والطغيان . »

مع كل كلمة ، كان رأس القاضي يهتز بايقاع موزون ، اهتزاز الاقتناع والتصديق ، وعندما انهى المطران حديثه ، أمن قاضي الشرع على رأيه ، واضاف :

ـ ... ولقد جاء في الكتاب الكريم ان الله يرزق من يشاء بدون حساب ، وانه رفع البعض فوق البعض الآخر درجات لحكمة ربانية تقصر عن فهمها البابنا البشرية المحدودة . واذن ... فاين الفضيحة ؟ لا فضيحة في القضية . وانما يجب ان نلزم الحذر ونجري تحقيقا دقيقا وسريعا ، دون اي تهاون او استهتار . وتقولون ، جماعة الـ ORS او عصابة الـ « SS 1963 » ، ولكن اسمهم غير ذلك . انهم المشركون ، وقد أمرنا الله بقتالهم ، وحربهم الجهاد المقدس . واخيرا ، اعود فأوكد ضرورة اجراء تحقيق مسهب ، والضرب بشدة ، ولقد جاء في صحيح الحديث : اعقلها وتوكل . وشكرا لكم جميعا . »

كان بخور المجامر ما يزال يتناثر في جو القاعة بهدوء وعذوبة ، ناشرا ارجا علويا خفي السحر والتأثير ، عندما نهض قائد الشرطة بثيابه المزركشة ، والرصينة رغم ذلك ، ليعلن عن رأيه بصراحة :

سيداتي ، سادتي .

أحييكم أجمل تحية ... وبعد .

أحب في مستهل حديثي هذا ان ابين لكم اني سألتزم جانب الصراحة التامة . وكلي امل الا يكون في هذه الصراحة ما يجرحكم ، او ما يجعلكم تفسرونها على انها خروج عن اللياقة ، او خشونة ، او غير ذلك ... لقد جزت الحياة . وعرفت مختلف وجوهها : الطيبة والخبيثة ، وعركت نماذج مختلفة متنوعة من البشر ، وخبرني تلك ، التي اعتز بها ، تجعلني اوكد لكم ، بصراحتي المعروفة . ان الفساد في الحقيقة ، مستقر في اعماق النفس البشرية . واسألوني أنا ، عن الانسان ، ذلك المخلوق العجيب ، فلقد عرفته ، وتأكد لي بالبرهان الملموس انه لا يفهم بالليّن ، ولا يعرف طريق الجد والاجتهاد والكرامة الا والعصا تأكل من لحم قفاه . ولذا ، اسمحوا لي ان اصارحكم بأن التساهل سيوصلنا الى ابعد واخطر مما نحن فيه . والحل؟..القسوة والشدة . فالقسوة سحر ، أي سحر ، يفعل فعله العجيب في النفوس الضعيفة المنحطة ، وما اكثرها ! ولو أن العصا أكلت من لحم تلك المرأة قطعة او قطعتين ، أذن للزمت بيتها ، وهي ، صدقوني ، في غنى اكيد عن التسول ، ولكن ... طبع ذليل ، ونفس حقيرة !

ويقولون لكم : نحن فقراء . دعوني أضحك ، انتم فقراء اذن ؟! ولكن تجربتي الطويلة ، أيها السادة ، كشفت لي عن حقيقة ذلك الزعم الكاذب الذي يدعونه . وانا اليوم أعلم علم اليقين ان ليس هناك فقراء . بل توجد فئتان من الاغنياء . الفئة الاولى فئة الاغنياء الذين يعيشون ويتمتعون بغناهم وثروتهم . اما الفئة الثانية ، فتضم جميع اصحاب النفوس الذليلة ، الذين يستطيبون الفقر والقذارة ، لبخلهم وسفالتهم ، وهم يجمعون كل ما لديهم من ثروة حقيقية في جوف الارض، او في حزام سميك يربطونه بحرص على بطونهم ليل نهار . ولذا ، ليس الا ان تطلقوا يدي للعمل بحرية تامة في هذا المجال ، اذا اردتم حقا الا تروا بعد اليوم فقيرا . وهل تعلمون ما كنت سأفعله ؟ من يقول : انا فقير ، ويندب ويبكي في المحلات العامة ، او في الدوائر الرسمية ، او في أي مكان ، آتي به معي الى المخفر ، فأجلده ، ثم اغمره في مغطس من الماء البارد ، وبعدها في مغطس من الماء الساخن ، ثم أجلده ، ثم الى الماء البارد ، ثم الى الماء الساخن ، واعود فأجلده ... واجلده ، وفورا الى الماء البارد ... ثم اجلده ، ثم ... الخلاصة ، ولا اريد ان اثقل عليكم بالتفاصيل الصغيرة ، أظل اعذبه ، حتى يعترف بكذبه ، فينكر فقره المزعوم ، ويقر بثروته المخفية ، ويتعهد بأن يكف عن الشكوى والبكاء على مفارق الطرقات العامة ، أجل ، لا ادعه يذهب حتى يعترف بثروته ، وبانه مسرور وسعيد في حياته .

أيها السادة الافاضل .

تلك هي طريقتي ، وثقوا بانها انجع طريقة ، وعندما يسمح لي بتجريبها ، واخول السلطة الكاملة في ذلك المجال ، سترون النتائج المذهلة التي سنصل اليها . تلك هي طريقتي ، وتلك هي خبرتي ، افدتكم في هذا الحديث القصير عنهما ، ولم يعد لي الآن الا ان اختتم كلمتي بشكركم على حسن الاصغاء .

شكرا والسلام . »

ولما لم يكن لقائد الموقع أي اعتراض على ذلك الرأي ، ولم يكن لديه ما يضيفه ، سكت سكوت الموافق المؤيد .

ثم نهضت سيدة سمينة ، وتصدرت المنصة ، وكانت مندوبة عن احدى الجمعيات الخيرية . ولقد تأكد للحاضرين ، من مراقبة حركاتها

اللطيفة ، ان باستطاعة المرأة ان تشارك في جميع المجالات العامة دون ان تفقد انوثتها . تحدثت طويلا ، ثم عاهدت الحاضرين في النهاية ، على الاستمرار في بذل كل ما في وسعها للتخفيف من آلام الموجوعين ،بروح الامومة الطاهرة .

ثم ... لكن ، ساترك لك عزيزي القارىء ، ان تعمل خيالك لتتصور جزئيات ودقائق ذلك الاجتماع : الانطباعات المختلفة المرتسمة على الوجوه ، الاحاديث المتشابكة المختلطة ، صرخات الموافقة والاستحسان ، واحيانا على العكس ... الغضب والانفعال ، وذلك الشارد هناك يفكر فيما لا يعلمه غير الله ، وتلك السيدة تسوي تنورتها الضيقة حول فخذيها الممتلئتين ،و ... و... امور كثيرة حتى لو اردت فلن اقدر على عرضها امامك ، اذ ليست الكلمة التي اعالجها واستنزف ما فيها من طاقة ، كاميرا سينمائية . ولكن فاتني في الحقيقة ان اذكر لك امرا هاما ، وهو دخول أم احمد ، او الاصح ، ادخالها بالقوة الى قاعة الاجتماع اكثر من مرة . ادخلها الآذن للمرة الاولى اثناء حديث المدير العام ، وعند مقطع من كلمته يتشكك فيه بأن يكون فقر تلك المرأة وبؤسها حقيقيا ، وانها اقرب الى ان تكون شخصية خيالية هاربة من احد الافلام السينمائية . واستأذن الحاضرين في عرض اللوحة امامهم ليتأكدوا بأنفسهم من صحة تخمينه .

وعندما طلب الآذن من أم أحمد القابعة امام باب البنك ان تدخل معه لمقابلة سيده ، ظنت في الامر صدقة كبيرة ، وان كان قد خالجها بعض التساؤل والاستغراب . فدخلت تنقل ساقيها بصعوبة كما تسير الدجاجة المريضة ، وقد لفت نفسها بثيابها المهلهلة . ولكنها فوجئت بدل السيد بأسياد . ولم تر أحدا في الحقيقة ، بل انعكس على شبكية عينيها كوم من البشر متكدسون في تلك القاعة .فأطرقت، وعيناها لا تستقران على موضع حتى في اطرافهما ، وكأنه قد حرم عليها النظر الى شيء بالذات . اشار المدير العام اليها ، في وقفتها الغريبة تلك ، تمثالا متحجرا ، مطرقا نحو الارض ، ليس فيه ما يدل على الحياة الا العينان الزائغتان ، ترتفعان احيانا بضعف وانكسار لترمقا جمهور المتفرجين ، ثم طلب من الآذن ان يخرجها وان يحتفظ بها في الرواق ، قرب قاعة الاجتماع ، وتابع حديثه . وادخلت مرة ثانية عندما ايد البعض الحاح قاضي الشرع لاجراء التحقيق ، وطلبوا الشروع فيه على الفور ، والتأكد من ان شعر المرأة الابيض ليس مستعارا ، وان تقوس ظهرها طبيعي وليس مجرد تمثيل . فدخلت هذه المرة ، يسبقها الخوف والذعر ، ولكن المطران مسح على رأسها بحنان ، ورسم فوقها اشارة الصليب ، وطلب منها ان تتشجع والا تخاف . اما قاضي الشرع فطبطب على ظهرها ، وكانت خبطات يده قوية ، فطقطقت عظام المسكينة ، ولكنها لم تجسر على اظهار الالم او الصراخ . وكان ذلك الامتحان الاول ، ثم ادخلت مرة ثالثة عندما تشكك احد الحاضرين في ان يكون معها اجهزة لاقطة مخفية ضمن ثيابها . فجاؤوا بها ، وادخلت هذه المرة الى غرفة صغيرة مجاورة ، وطلب الى احدى المحسنات الخيريات ان تقوم بتفتيشها . فقامت بعملها باجتهاد ، ولكن فاجأها اثناء ذلك شعور بالقرف لم تستطع كبحه . وهكذا ، كان دخول أم احمد الى القاعة وخروجها منها ، الايقاع الذي نظم سير الجلسة ومناقشاتها . وقد جيء بها مرة رابعة لالقاء بعض الاسئلة عليها . وطلبت للمرة الخامسة لفكرة الحت على ذهن المدير العام واراد ان يتأكد منها . وكانت المرة الاخيرة . وبينما كانت المسكينة تتجه نحو الباب ، يمسك بها الآذن من ذراعها ، سقط الكيس الصغير الذي تجمع فيه جنى يومها ، وتناثرت فرنكاتها على بلاط القاعة ، ولكل فرنك رنة مستقلة عذبة . فكانت تلك اقسى مصيبة حلت بها حتى تلك اللحظة ، وهمت بالانحناء لتجمع ثروتها ، لولا ان الآذن اخذ يجرها باتجاه الباب ، عندها ، لم تعد تطيق صبرا ، فانهارت على الارض ، واخذت في بكاء شديد ، وراحت تزحف بين ارجل الحاضرين ، باكية ، مقبلة الايادي والارجل والارض ، طلبا للرحمة والشفقة . فلم يعد هناك شك في براءتها من الاتصال باي شبكة تجسسية ، او أي جماعة سياسية . وشعر الحاضرون من ذلك بما يشبه خيبة الامل ، وانقلب البحث بهم الى مناقشة مشكلة التسول، وغيرها من مشاكل الفقراء الفاضحة ، والتي تسيء الى سمعة البلاد .

استمر البحث يدور حول مشكلة التسول ، وقذارة الاحياء الشعبية ، وغير ذلك من فضائح لا يرتاح لها السياح . والقي باللوم على الجمعيات الخيرية ، والقت الجمعيات الخيرية باللوم على المتبرعين وضآلة المخصصات المفروضة لهم ، والقى اولئك اشد اللوم على رجال الامن الذين يتسامرون مع المتسول عندما يشاهدونه ، بدلا من سوقه الى اقرب مخفر ، وهاجم قائد الشرطة السلطة العليا ، لانها تكبل يده،وان لديه حلولا جذرية لكل تلك المشاكل ، ولكن لا احد يريد ان يستمع له.. وهكذا ، دار البحث حول نفسه دون نتيجة . ولكن كان هناك مشكلة ملحة تفرض نفسها : مشكلة تلك المنتظرة في الرواق ، وقد اهينت على اكثر من وجه . وكان المدير العام يردد بعصبية :

ـ ... ثم انها ستعود الى مجلسها امام البنك ، فكاننا لم نقم باي عمل . وثقوا بانها ستسرد ما حصل معها بالتفصيل ، وثقوا اذن بأن المعلومات ستصل دون تأخير الى اولئك الصحفيين الموتورين ، والذين يتنسمون رائحة الفضائح على بعد مئات الكيلومترات ، واكثر ...

فوجيء الحاضرون بتلك الاحتمالات المهددة تنتصب امامهم فجأة ، ووقفوا امامها عاجزين . وغرقوا بادىء الامر في اقتراحات صبيانية مضحكة . قال احد الحاضرين ، بنزق واستعلاء :

ـ نصرفها والسلام ، ومن يتعرض لنا نقطع لسانه !

وتبعه آخر ، لا شك وانه يكثر من المطالعات ، قال بهدوء ، وهو يرسم بيديه حركات مبهمة في الفراغ :

ـ بل ارى ان نخفف عنها بالكلمات اللطيفة ، ثم نصرفها بالحسنى، بعد ان نعتذر منها اعتذارا رقيقا ، فللكلمات جاذبية ، وان من البيان لسحرا !

وظلوا لفترة تائهين حائرين ، حتى لمعت الفكرة الذكية في سماء تلك القاعة فاذهلت الحاضرين اعجابا واستحسانا . وكان اول من قاد الفكرة ودل عليها سماحة قاضي الشرع ، الذي بين كيف امر الدين بالاحسان ، لا بل حدد ذلك الاحسان بالزكاة ، وقال :

ـ ... انا وان كنت لا اتشبث بفرض الحد الذي اقامته الزكاة ، ارى ان تعالج هذه المرأة بما يفك عنها الضيق الذي هي فيه . فلتصرف لها الجمعيات الخيرية ، او اي مصدر آخر ما يكفيها . او ، ما رايكم في ان ننزلها دار العجزة والايتام ، اذا امكن ذلك ؟..

وأكد بأن ذلك العمل سيسجل بمداد من ذهب ، وان الله سيثيبهم عن ذلك خير ثواب يوم القيامة . واستحسن المطران تلك الفكرة كثيرا، واضاف :

ـ ... عندها ، يكون بامكاننا ان نشيد علنا في قداس يوم الاحد باسم المحسن الكبير ، المدير العام رفعت بك ، وغيره ، ممن سيساهمون في ذلك العمل الجليل . كما اننا ، نقطع الطريق على السنة السوء ومحبي الاشاعات واثارة القلاقل » .

وكانت فكرة ارتاح لها الحاضرون ، وكادوا يشرعون في الاتفاق حولها ، لولا قيام شاب لم يتجاوز الثلاثين ، قيل لي انه يعمل في المخابرات ، وكان قد حضر ذلك الاجتماع برفقة قائد الشرطة للاشراف والاطلاع . ولقد تبنى ذلك الشاب فكرة قاضي الشرع ، ولكنه طورها واغناها بذكاء عز على الاخرين تحصيله . اكد في البداية للحاضرين :

ـ القدر السعيد ، صدقوني ، هو الذي القى على طريقنا بتلك الشحاذة ...

وامام دهشة الجميع شرع يدلي بتفسيره :

ـ تعلمون ان الافكار والعواطف عند مولدها في النفس تبقى عاجزة ، كليلة ، وغير واضحة ، وتحتاج الى شكل خارجي ، الى وعاء تحل فيه ، بكلمة اخرى بحاجة الى ان تتجسد . وما دامت في صورتها المجردة ، تبقى ضبابية ، ضعيفة التاثير ، حتى تنتقل الى الصورة

المحسوسة المجسدة . ما معنى هذا الكلام الجاف ؟.. معناه ، اننا لا يكفي ان ندعو الى البر ونحض عليه ، بل يجب ان نقوم ببعض الاعمال لتكون مثلا امام الآخرين . والاعمال العامة ، كاقامة الجمعيات الخيرية او غير ذلك ، يبقى ضعيف الاقناع من وجهة نظر دعائية خالصة ،ولكن الاعمال الفردية ، والتي يحسن اثارة الضجة حولها ، تقدم فائدة غير محدودة في مجال الدعاية ، وفي تجسيد ما كان قولا وفكرا مجردا . ونحن الآن امام مشكلة ، او ورطة كما تسمونها . ولكن بامكاننا ان نجعلها غير ذلك . فلماذا لا يقوم المدير العام بنفسه بايواء ورعاية تلك المراة لفترة بسيطة ، ونثير نحن اثناء ذلك ضجة كبيرة على اساس ان تلك الشحاذة الفقيرة ، طلبت العون من المدير العام عندما رأته يحضر الاجتماع ، لما توسمت فيه من طيبة وشهامة ، لانها فقيرة ، كما تعاني من مرض مبرح لا تعرف سره ولا تقوى على علاجه ، وان المدير العام قد استغرب وجود مثل ذلك الفقر ، وثار على جميع المسؤولين ، وانه قد تبنى تلك الفقيرة ، وافرد لها غرفة في بيته ، تقيم فيها ريثما تتم التحاليل الطبية المختلفة لمعرفة مرضها ، وانه سيتولى ارسالها الى الخارج للعلاج ان اقتضى الامر . وبالطبع ، سيهاجم الجمعيات الخيرية ... عفوا ، ارجو الا يقاطعني احد ، حتى انهي شرحي ... قلت ، يهاجم المدير الجمعيات الخيرية ، فيكون هذا الهجوم مناسبة لتلك الاخيرة ، للدفاع عن نفسها ونشر فضائلها على صفحات المجلات، وتكون أحسن مناسبة لجميع العاملين في تلك الجمعيات ولجميع المتبرعين لنشر اسمائهم وصورهم في الصحف . كما ان المدير يهاجم السلطة ...

وتوقف لفترة وهو يبتسم ، ثم تابع :

ـ بالطبع هجوما لطيفا ، وان ظهر بمظهر العنف والاحتداد ، فيتيح بذلك لجميع صحفيينا ان ينبروا للدفاع عن السلطة بحماس واندفاع . ولن يكون لذلك التهجم من ضرر ، كونوا مطمئنين لذلك ، بل على العكس سيرسخ النظام القائم ويقوي من دعائمه . وانت اذا اردت ان تقوي النظام وتدعمه ، فهاجمه ، وانت نصيره، هجوما خفيفا، ينتصر عليه ، ويخرج من الجولة خروج المظفر ، اقوى واشد مما كان . ومن الاجدى ، واظنكم توافقونني على ذلك ، ان تنتقد نفسك ، فتقطع الطريق بذلك على خصمك في انتقادك . وبانتقادك لنفسك تظهر بمظهر الكمال ، فتربح من حيث خيل للاخرين انك خسرت . وامر آخر ايضا ، تعلمون بان الجميع منشغلون بامر تلك الاجتماعات التي تعقد في كافة ارجاء البلاد ، وبالتالي ، نستطيع اذا احسنا اثارة الضجة حول هذه المسالة الجانبية ، ان نحول انظار الجمهور الى جهة ثانية ، وان نخلق له قصة تسليه عن تتبع نشاطاتنا لفترة طويلة . فانت ، اذا ما رغبت في الاتجاه الى المغرب دون ان يراك احد ، ليس عليك الا ان تحدث جلبة مفتعلة في المشرق ، تتوجه اليها كل الانظار ، فتسير انت الى بغيتك هانئا ، مرتاح البال ، لا يزعجك احد . هذا معروف . وتلك طريقة قديمة لا اظنها تخفى على افهامكم ...

كان الحاضرون يتطلعون الى ذلك الشاب بتقديس ، ويستمعون اليه بمنتهى الانبهار والذهول . اي ذكاء ! اي المعية ! وتوقعوا له ان ينتقل سريعا من سلك المخابرات الى ميدان العمل السياسي ، وتنبأوا له سلفا بمستقبل باهر . وعندما انهى حديثه قائلا :

ـ ... صدقوني ، لا عد ولا حصر للفوائد التي يمكن ان نجنيها من هذه القصة ، وليس علينا سوى ان نحسن استغلالها ، بذكاء ودراية على خير وجه .

لم يتمالك المدير العام نفسه ، فنهض وقد اخذت به النشوة والحماس كل ماخذ ، واتجه اليه ، وصافحه بحماس وحرارة ، وهمس في اذنه : ـ انتظرني ... اريد ان نتدارس الامر سوية .

ثم اعلن للحاضرين انتهاء الجلسة .

كما ترى ، الاقتراح ذكي فعلا ، وما فيه من تعقيد وتداخل يدل حقا على حنكة اكيدة ، وخبرة بعيدة يستغرب مثلها عند الشباب . وانا بشرفي ، عندما نقل لي احد الموجودين وقائع الجلسة ، لم افهم في البداية كيف يمكن لرفعت بك ان يهاجم نفسه ، ويكون في ذلك قوة له ، ولا كيف يهاجم الجمعيات الخيرية لتقويتها وتدعيمها ، ولم افهم حتى شرح لي صديقي المسالة مرة واثنتين وثلاثا ، ودعم شرحه بامثلة كثيرة واقعية ، خرجت منها مبهورا ، وفهمت عندها لماذا يردد العامة البسطاء كلمة « السياسة » بخوف ، ويلعنونها ويلعنون كل من اشتغل بها او تعاطى عقاقيرها السحرية .

ومن أين لمثل تلك الفكرة الجهنمية ان تخطر على بال انسان لاه. ولقد نجحت ، والحق يقال ، نجاحا كبيرا . ففي اليوم التالي ، وبعد ان ادخلت ام احمد الى الحمام ، والبست ثوبا نظيفا ، حضر لفيف من الصحفيين ، مع جمع غفير من المصورين . ولمعت اضواء العدسات مئات المرات ذلك اليوم في فيلا رفعت بك . وصرح هو نفسه تصريحات مختلفة لم تنقصها الجرأة ، وتهجم على اكثر من جهة ، ورفع اصبع الاتهام في وجه اكثر من مسؤول . واعلن :

ـ ... كنت وما أزال وساظل نصير الفقراء ، وعونا لكل من يقول : آخ ، تخرج صادقة مريرة ، من صدر موجوع ، وحيد في قلب الليل المعتم ... وليسمع الجميع ما اقوله ، فساظل اردده ما دمت على قيد الحياة ...

وظهرت تلك الاقوال في الصحف . وخرجت صورة الشحاذة الى الصفحة الاولى لاكثر من جريدة ، وفي وضعيات مختلفة . فهي في احدى الصور تشوح بيديها ، وقد فتحت فمها حتى النهاية ، بينما تقف في صورة ثانية جامدة ، وقد الصقت يديها بجسدها ، وفمها مطبق . وتنوعت العناوين ، « المدير العام : انا اتهم ! » وعنوان آخر تصدر الصفحة الاولى لجريدة مشهورة ، عنوان ضخم ومثير : « اسمعي يا حكومة !» وانهمر زخم الاسلة واشارات الاستفهام الملحة : ماذا يقول عنا الاجانب ؟ أين انتم يا رجال الامن ؟ اين الجمعيات الخيرية وسيدانها الفاضلات ؟. وبالطبع ، كان لتلك الاسئلة اجابات ، ولقد تصدى المعنيون لتقديمها مفحمة باترة ، بنفس الحدة واشد ، تماما كما كان متوقعا ومرسوما .

وبالاضافه الى هذا وذاك فقد هجم احد المذيعين الى فيلا المدير العام ، وسجل له حديثا اجتماعيا دام ربع ساعة كاملة . فما كان من التلفزيون الا ان خصص ندوة تلفزيونية مستفيضة ، اشترك فيها رفعت بك مع لفيف من المسؤولين . وقد نوقشت فيها الامور بمنتهى الصراحة والوضوح ، وبلغة العلم والارقام . اذ ، كما صرح مسؤول في تلك الندوة :

ـ انتهى عهد التخوف والهرب ، ونحن الآن قد دخلنا عصر العلم والمعرفة .

نجحت الفكرة نجاحا باهرا ، لا بل سجل الحدث في الشريط السينمائي المصور ، الذي يعرض اخبار البلاد ، واحداثها الداخلية الهامة . ولم يعد امام رفعت بك الا ان يجد وسيلة يتخلص بها من الشحاذة ، التي بدات تثقل عليه كثيرا . فلقد أخذت باقوالها الكثيرة ، وصدقت بقلب طيب كل ما تفوه به . فصارت تطارده من غرفة الى اخرى ، وتدخل الى مكتبه دون استئذان ، ولم يعد يسمع الا شكواها وبكاءها في ذهابه وجيئته ، فتحول البيت الى جحيم حقيقي ، فهي مريضة فعلا ، وتريده ان يحضر لها كل اطباء البلد :

ـ ... رفعت بك ، قلبي احس فيه مثل ضرب السكين ... رفعت بك ، كرمى للرسل والانبياء ، قلبي يؤلمني . وخاصرتي ايضا .. آه يا خاصرتي ! ...

وهي فقيرة ، وتريد ان تذكره بذلك دون توقف . ثم انها شاكرة له ، وتريد ان تعبر بطريقة مزعجة ، وفي كل لحظة ، عن ذلك الشكر: بدعوات ذليلة منغصة ، بهجمات مفاجئة لتقبيل يديه ، او غير ذلك من الاساليب الفجة . وكاد يلقي بها الى الشارع ، لولا ان نصحه احد اصدقائه قائلا :

ـ بل احتفظ بها عندك يا رفعت بك ، حتى تؤمن ايواءها عند اي عائلة من معارفك ، كخادمة . هذا اشرف ! فابقاها في بيته ، وتحمل كل تلك المزعجات على مضض ، بانتظار الفرج .

كان رفعت بك قد اعتبر الموضوع منتهيا . ولكن ... ما هذا ؟ اللعنة على نسل آدم بأكمله !.. لا ، بل يبدو ان القصة الحقيقية لم تبدأ بعد . فقد تعرض له صبيحة احد الايام أمام باب الفيلا شخص بائس ، زري المظهر ، هو في بؤسه وشقائه الى هيئة الحيوانات المتوحشة اقرب منه الى هيئة الآدميين . وكان يحمل على ظهره ولدا في السابعة من عمره : ولده . ولقد هجم على رفعت بك فور ان رآه، وهو يستجير :

ـ رفعت بك ، الرحمة ... النجدة ، وانت صاحب النجدة . ولدي يا رفعت بك كما ترى يوشك ان يموت . ولا يقبل أي طبيب ان يفحصه مجانا . وانا فقير ، على الحصير ، ولا استطيع ان ادخله الى المستشفى . وقد نصحوني ان ليس امامي سواك يا رفعت بك . انت ، انت نصيرنا نحن الفقراء ، وعوننا نحن المحتاجين ...

ولكن الرجل انبهر عندما هرب رفعت بك من امامه وهو يشتم ويجدف . وقد قذف في وجهه ، وهو يصعد الى سيارته ، بخمس ليرات استلها من جيبه بغضب وانفعال ، ومعها تلك الدعوة المنفعلة :

ـ الى جهنم انت وابنك وكل مشعوذ . ما هذا ؟ الرحمة يا ناس ! كلما اردت ان تستريح ، خرج لك مولول نداب ، يشعوذ امامك ويملأ الدنيا بكاء وشكوى . سأجن .. سأجن على هذه الحالة ! ..

فهل انتهى الامر ، بل كانت تلك البداية . وكان شخص آخر يقبع امام البنك بانتظار وصول المدير العام . وعندما خرج من مكتبه ظهرا ، كان ينتظره هذه المرة ثلاثة ، بينهم امرأة سمينة ، تلبس ثيابا فقيرة ، وتريد منه ان يدبر عملا لولدها البكر :

ـ رفعت بك ، اجعله من معروفك ... رفعت بك .. عندي ثمانية اولاد ايتام ، فتفضل علي وانت صاحب الفضل ...

رفعت بك ... آخ ! رفعت بك ... امان ! رفعت بك ... خاصرتي ! رفعت بك ... قلبي ! رأسي ! أحشائي ! أي ... يا ويلي انا ! رفعت بك ... ابني ! حيواني ! وظيفة ... وظيفة كرمى لله ! رفعت بك ...! رفعت بك !..

على مثل ذلك صار رفعت بك ينام ويستيقظ . واوشك ان يصاب بانهيار عصبي . لا بل هذا ما حصل معه بالفعل ، عندما عاد ظهر احد الايام الى الفيلا ، منهكا ، فوجد امام الباب ، وحول اسوار الحديقة جمهرة من الناس ، بينهم شاب قد ربط عينه اليسرى بعصابة متسخة من القماش ، بينما علق رجل آخر ، متقدم في السن ، يده اليمنى في عنقه بخرقة سوداء . وقد انضم الى شذاذ الآفاق اولئك ، جمع من الاطفال والفضوليين ، فتشكلت منهم مظاهرة حقيقية . وعندما اقتربت السيارة ، علا الصراخ ، وارتفع التهليل ، وسمعت بعض التأوهات والتوجعات المريرة ، ولولا بداهة السائق وحسن تصرفه ، لقضى رفعت بك اعصب ساعة في حياته . ولكن السائق انجده ، وفر به وبالسيارة من امام المد الزاحف . هرب رفعت بك ، وهو في حالة من الانهيار العصبي مؤلمة ، الى احد الفنادق ، واتصل من هناك هاتفيا ، وطلب ان تقوم الشرطة بتفريق تلك المظاهرة من امام بيته . وكان صوته يهدر :

ـ اطردوهم ... الكلاب ، اولاد الكلب ! اضربوهم ... اعتقلوهم جميعا . لا اريد ان يهرب احد . انا مواطن ... مواطن ككل المواطنين ، ولا يتركني اولئك التيوس اعيش لحظة براحة بال . لا رحمة ... لا رحمة بعد اليوم ...

وعندما وضع السماعة ، جال في خاطره ما سبق وقاله قائد الشرطة ، واحس ساعتها باحترام شديد تجاه ذلك الرجل .

ـ فعلا ليست الحسنى مما يعامل به الفقراء ، او ادعياء الفقر. وليس لهم الا العصا تخفيهم في حجورهم ، ولا تعود تراهم ، وترتاح، على الاقل ، من سماع تأوهاتهم ، وتوجعاتهم المنفصة .

ولم يكن له من معين الا الشاب الذي كان صاحب الفكرة . وهو من ورطة تلك الورطة المشؤومة ، فلجأ اليه شاكيا معاتبا :

ـ فكرتك ياصاحبي قتلتني ، على ذكائها .. على ذكائها ، قتلتني. وليس لي سواك . فانت ورطتني ، وانت الان يجب ان تخلصني .. هات لنرى ، الهب ذكاءك ليتأجج بالافكار ! بماذا تشير عليّ ؟

ـ تسافر الى فرنسا ، وتكمل اصطيافك هناك . واصطحب معك ام احمد ، بامكانك ان تضعها لتخدم عند اي عائلة من عائلاتنا هناك. فالمهم الان ان يغيب اشخاص القصة عن المسرح ، لفترة كافية للنسيان.

ـ الى فرنسا ؟! .. والاجتماعات ؟.. والاعمال ؟.. هل تراني جننت ؟.. ثم ماذا تفعل ام عفريت تلك معي ؟..

عارض رفعت بك بادىء الامر ، ولكنه اقتنع في النهاية ، وقرر ان يكلف من ينوب عنه في تسيير الاعمال والاشراف على الاجتماعات . ولقد لامه الشاب لوما شديدا على نفاد صبره، وسرعة انفعاله؟

ـ لقد نجحت الفكر، فكرتي، نجاحا اكيدا ... وتكاد بانفعالك وعصبيتك تفسد كل شيء . ويمكنك ان تتخلص من ذوي الحاجات بالف طريقة لطيفة .. أرضهم من حسابهم يا صاحبي .. تلك هي الطريقة المثلى .. وأم أحمد ؟ لماذا تفرض عليها ذلك الحجر ؟ سر مع فكرتي حتى النهاية .. لو كنت مكانك للاطفتها ، ولظهرت معها في اكثر من مكان عام .. صد قني تلك هي الطريقة المثلى .. والمسألة في النهاية ، مسألة وقت لا اكثر ولا أقل..

قال رفعت بك ، بعد فترة ، وقد تطامن :

ـ فعلا ، الحق معك . أنا بالفعل سريع الاشتعال ، ولكن ،هذا طبع فيّ ولا استطيع تبديله . ما رأيك ان نخرج اليوم في نزهة بحرية، وترافقنا انت ، وتكون ام أحمد ايضا معنا ؟

ـ عال .. لا مانع لدي على الاطلاق ... واعود فأؤكد لك بان المسألة مسألة وقت فقط .

وكانت تلك المرة الاولى التي تصعد فيها ام أحمد على ظهر زورق بحري ، فشعر بالخوف في البداية ، ثم استراحت بعدها لشعور لذيذ بالحذر والنشوة والزورق يمزق صفحة الماء وينطلق شطر البحر الواسع . فانتحت في ركن منعزل ،على حافة الزورق،وايسلمت

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

- من ادبنا المعاصر
  للدكتور طه حسين
- قضايا جديدة في ادبنا الحديث
  للدكتور محمد مندور
- مشكلة الحب
  للدكتور زكريا ابراهيم
- تجديد رسالة الغفران
  لخليل هنداوي
- دراسات في الادب الجزائري
  لابو القاسم سعد الله
- بابا همنغواي
  لهوتشنر
- الادب المسؤول
  رئيف خوري

نظراتها للمياه الزرقاء الصقيلة . وكانت ينابيع من الرذاذ الابيض تنبجس عند حافات المركب ، فسحرها ذلك المنظر ، كان الرذاذ المتكاثف ، ناصع البياض ، كرف من الحمائم البيض تطير بنعومة ، او كتباشير النهار العذبة ، فانحنت نحو الماء ، ومدت يدها علها تقتبس من ذلك الضياء شعاعا ، او تجس بحنان الجناح الناعم لحمامة اليفة . واحست في انحناءتها بأعذب احساس خالجها طيلة حياتها :فقد لفها دوار بسيط ، منعش ولذيذ ، واختلطت السماء مع البحر ، في جو اثيري شفاف ، واحست بنفسها تسبح في ذلك الجو الاثيري بهدوء وسكينة .

عندما انتشلت ام أحمد من الماء ، كانت قد فارقت الحياة . ولم يستطع رفعت بك ان يمنع نفسه من السرور لذلك ، فقد انتهت متاعبه ، انهاها القدر السعيد هذه المرة . وعندما قال للشاب صديقه:

ـ ما رأيك ، انتهينا ، دون تنفيذ فكرتك الاخيرة . وسوف القي بها على أول مزبلة ، الا توافق ؟ أخلد الشاب فترة للتفكير وهو يتأمل الجثة امامه ، ثم قال :

ـ بل عندي فكرة ! ان موت أم احمد مناسبة جيدة لا يجب ان يفوتنا استغلالها .

ـ فكرة ! الرحمة !.. كادت افكارك توصلني الى مستشفى المجانين. فقال الشاب بأناة :

ـ الا تسمعني اولا ؟ لقد قصدك العدد الغفير من الفقراء بحاجات ورددتهم أخشن رد ، ولن يكون لذلك صداه الطيب ، وفي رأيي انك يجب ان تسوي ما بينك وبينهم جميعا ، وموت ام احمد هو مفتاح تلك المصالحة . لماذا تريد ان تدفن تلك الشحاذة باهمال ، وكأنها كلب؟ بل امضي مع فكرتي حتى النهاية . ففي الحي الشمالي ، وعلى التل المرتفع المشرف على البحر ، فسحة من الارض لا تعود عليك باي نفع. فليست صالحة للزراعة ، وليست تلك المنطقة منطقة عمرانية . فلماذا لا تهب تلك الارض للفقراء ، لجميع الفقراء ؟

ـ وما يصنع بها اولئك التعساء ؟

ـ بل قل ما نصنع لهم بها نحن ؟ سنشيد لهم فيها مقبرة ، ونقيم في تلك المقبرة لام احمد ضريحا رائعا . ولان المقبرة تشرف على البحر الازرق الهادىء ، وتهجع فيها ارواح اخلدت للراحةوالسكينة بعد طول جهاد وعراك ، فسوف نسميها « مقبرة السلام » . وسوف يحفر اسمك عند مدخل المقبرة . ما رأيك ؟ تكون قد انتهيت تلك القصة خير نهاية ؟

رمقه رفعت بك باعجاب ، واحس نحوه بأعمق الاحترام والتقدير، وقال بتأثر :

ـ موافق مائة بالمائة . أنت يا صاحبي تثبت دائما انك اذكى بكثير مما يصفك به الاخرون .

ـ استدرك الشاب :

ـ نسيت أن اضيف بانه يجب علينا ايضا ان ننشىء جمعية خيرية لدفن الموتى ، لانه قد يكون بين اولئك الفقراء من لا يملك ثمن النعش والكفن ساعة يموت ...

وبالطبع ، وافق رفعت بك على ذلك ايضا . وهذا بالفعل ما قد حصل . فعلى تلك التلة العالية المشرفة ، قبالة البحر الازرق، نهضت « مقبرة السلام » ، وانتصب في تلك المقبرة ضريح جميل مسور بالقضبان الحديدية العالية ، وقد زرعت حوله بعض الورود الشذية . وعلى المدخل رفعت رخامة بيضاء صقيلة ، نحت عليها :

ـ شيدها المحسن الكبير رفعت بك قطرياني ، امده الله بالعون والتوفيق .

على تلك التلة العالية المشرفة ، قبالة البحر الازرق ، استراحت « مقبرة السلام » للسنات البحرية الملاطفة ، وتطامنت تنتظر الارواح التائقة للهدوء والسكينة .

بيروت

يوسف شامل

هكذا انتصر «الفيتكونغ»

بقلم

رمزي نشاطي

« فقد « الفيتكونغ » منذ ان دخل في حرب المواجهة المباشرة مع اميركا ما يقرب من نصف مليون مقاتل ، خلاف الجرحى والاسرى ولا سيما الذين تلفت اعصابهم وانهال عليهم اليأس .. ورغم ذلك ، صمدت الجبهة ، وواصلت الكفاح بعزم أكبر ، وبقدرة دفاعية أقوى حتى استطاعت أن توجه ضرباتها المتتالية في قلب العاصمة سايغون التي تنتظر الآن هجوما كاسحا عليها ...

« لقد استطاعت الجبهة ان تقود كفاح الجماهير الشعبية وان تصمد ببطولة امام اكبر واقوى دولة في العالم .. وقد اقتنع العالم كله بشرعيتها ولم يبق الآن سوى الاعتراف بها رسميا ، ومن جانب الولايات المتحدة اولا .. وهكذا انتصر الفيتكونغ » .

كتاب نحتاج اليه الآن ، لانه يحمل لنا دروسا كثيرة في نضالنا وكفاحنا لاستر داد ارضنا المسلوبة ..

٢٥٠ ق. ل

صدر حديثا